الزرقاوي.. الجيل الثاني للقاعدة شهادة المقدسي(6):

على الزرقاوي التحرز من سفك دماء المسلمين ولو كانوا فجاراً وان ينتبه للفرق بين الكفر الاصلي والاصطلاحي

لم يعجبني سفر أبو مصعب لأفغانستان بعد خروجنا من السجن وكنت أتألم من السطحية العجيبة في التنظيم

فؤاد حسين*

■ الشخصية التي يتناولها هذا الكتاب فرضت أنماطا مختلفة من صنوف التصنيف، تارة أسلوب البحث العلمي المعتمد على القراءة والبحث والتمحيص والتلخيص، وقد أخذ هذا الأسلوب نصيبه في فصول هذا الكتاب، وتارة أخرى الاستماع إلى شهادات العشرات ممن عرفوا الزرقاوي أو رافقوه في مختلف محطات حياته، وهذا أخذ وقتا طويلا بين تدوين تلك الشهادات، ومن ثم تدقيقها، وتمحيصها، ومقارنة الشهادات بعضها ببعض، للوقوف على المعلومة الدقيقة لاستخدامها بعد التحقق من صحتها، وطرح المعلومة الضعيفة واستبعادها، مالم نستطع التثبت منها، وتارة أخرى الطلب من أشخاص بعينهم أن يكتبوا بأنفسهم إجاباتهم على أسئلة طرحناها عليهم، لكن الشاق في هذا الجانب كان الوصول إلى هؤلاء الأشخاص ممن لهم بصمات واضحة، سواء في تشكيل فكر الزرقاوي أو تشكيل منهجه واستراتيجيته، وكانت هذه المرحلة الأصعب من الكتاب، إذ باتت إمكانية الاتصال مع هؤلاء صعبة للغاية، إن لم تكن شبه مستحيلة، بعد الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، فغالبيتهم إما في السجون أو مطاردون أو مختفون، لكن دون تدوين شهاداتهم، لن يكون للكتاب إضافة معتبرة، فآثرنا تأخير الكتاب شهورا عدة إلى أن وصلنا إلى مبتغانا، وضمنا الكتاب ثلاث شهادات تغطي مراحل تطور مسيرة الزرقاوي.

الشهادة الأولى كانت لأبي المنتصر بالله محمد، وهو الشخص الأول الذي بدأ الزرقاوي معه بناء التنظيم الأول الذي أسسه أبو مصعب عام 1993، وهو تنظيم التوحيد، الذي عُرف لاحقا باسم (بيعة الأمام)، مسجلا بالتواريخ والأسماء والأحداث كل ما تم حتى عام 1999. فآثرنا تلخيص هذه الشهادة دون التدخل في مضمونها، ذلك أن الكثير مما ذكره لم يعد سرا يحمل صفة الجدة، إن لم أقل أنه سبق أن نشر مضمونه بعموميته، لذلك أبقينا على المعلومات التي طرحت للمرة الأولى، وعلى الانطباع الشخصي لصاحب الشهادة وموقفه من تلك الأحداث التي دونها.

الشهادة الثانية كانت للأب الروحي للزرقاوي عصام البرقاوي (أبو محمد المقدسي) الذي التقاه في الباكستان عام 1989، واتفق معه هناك على تشكيل تنظيم ديني في الأردن، وبقي معه في السجن، بادئا معه كرفيق درب وصديق، ثم شيخه الذي ينظر لفكرة التنظيم ويضع أدبياتها، ثم كتابع له بعد أن أصبح الزرقاوي أميرا للمجموعة داخل السجن، ثم منتقداله وناصحا عن بعد، هو في سجنه بالأردن والزرقاوي في العراق.

الشهادة الثالثة، وهي الأهم كانت للرجل الثالث في القاعدة محمد مكاوي (سيف العدل) الذي يلقي من خلال شهادته الضوء على القدوم الثاني للزرقاوي إلى أفغانستان عام 1999، وأسباب الخلاف بين الزرقاوي وبن لادن، وكيف تم إنشاء معسكر خاص للزرقاوي في هيرات، مبينا طبيعة العلاقة التي كانت قائمة في تلك الفترة بين قيادة القاعدة والزرقاوي، وصولا إلى ضربة الحادي عشر من ايلول (سبتمبر)، وأهداف القاعدة من وراء هذه الضربة، موضحا كم تحقق من تلك الأهداف، مرورا باحتلال أفغانستان والخروج إلى باكستان وإيران، كاشفا طبيعة الدور الذي لعبته طهران حينذاك، وبعد ذلك قرار إدخال الزرقاوي إلى العراق والتحضيرات التي سبقت ذلك. وفي محاولة لاستشراف مستقبل القاعدة في العراق من خلال تطور تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين تتبع الكتاب محطات تطور عمل، وشخصية الزرقاوي، خلال السنوات الثلاث الأخيرة. معتمدين معلومات دقيقة تطلب الوصول إليها استقصاء دقيقا وحثيثا، لكل من كان على تماس مع الزرقاوي خلال تلك السنين.

وللوقوف على مستقبل الحرب المفتوحة بين القاعدة، وواشنطن التي تطلق على حربها تلك مصطلح محاربة الإرهاب الدولي، حاورنا العديد من منظري القاعدة سواء ممن ساهموا في صنع استراتيجياتها في وقت سابق أو من باتوا من صناع قراراتها لاحقا، واستمعنا إلى كل ما يجول بخاطرهم، لنرسم للقراء استراتيجية القاعدة حتى عام 2020، والوسائل التي أتبعوها، والخطط التي وضعوها للوصول إلى تحقيق هذه الاستراتيجية.

شهادة ابو محمد المقدسي

بين أيدينا وثيقة كتبها في شهر أيلول (سبتمبر) من عام 2004 عصام طاهر البرقاوي المعروف باسم (أبو محمد المقدسي) عن معرفته بالزرقاوي ورأيه في ما يقوم به حاليا في العراق ننشرها بحرفيتها دون أي تدخل وهي بعنوان:

الزرقاوي: مناصرة ومناصحة
آمال وآلام

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على قائد المجاهدين وعلى آله وأصحابه الغر الميامين.. وبعد:

فقد لقيت أبا مصعب لأول مرة في بيشاور لقاءاً عابراً في بيت الأخ أبي الوليد الأنصاري حفظه الله.. وكان ذلك في أوائل التسعينيات ولم أكن أعرفه من قبل فقد كان قدومي للأردن حديثا، ثم لما عاد من أفغانستان زارني في بيتي يتشوق لنصرة التوحيد والدعوة إلى الله؛ وكان أبو الوليد هو الذي أعطاه عنواني في الأردن ونصحه بالاتصال بي إن أراد العمل لدين الله في الأردن، كان هذا قبل قرابة الأربعة عشر عاماً..

فتعاونا سوياً في هذا المجال ورتبت دروساً في مناطق شتى من البلد، وقمنا بطباعة بعض كتاباتي ونشرها بين الناس، وبدأ الشباب بالالتفاف حول هذه الدعوة وتداولوا كتاباتها ورسائلها، وتنبهت الأجهزة الأمنية لذلك فداهمت منازلنا في أوقات متفاوتة وبدأت عملية المطاردة والاعتقال، فاعتقلنا تباعاً ومكثنا في زنازن دائرة المخابرات فترات أقلها ستة شهور، كانت بالنسبة لأكثرنا التجربة الأولى في وجه أعداء الله في هذا البلد، فاخترت الصدع بعقيدتي وعدم الأخذ بالتقية فواجهتهم وصارحتهم بكفرهم وكفر أسيادهم وطواغيتهم في الزنازين ومكاتب التحقيق ابتداء، وبعد ذلك في المحاكم والسجون، جنباً إلى جنب مع أبي مصعب وطائفة من الشباب ممن تأثروا بدعوتي وكتاباتي.

وكان أن نُقلنا من الزنازن الانفرادية إلى السجون العامة لبدء المحاكمات، فعلوني ـ كوني صنفت المتهم الأول ـ في سجن في شمال البلاد، ووضع أبو مصعب كونه كان المتهم الثاني في سجن في وسطها، ووضع باقي إخواننا جميعاً في سجن في جنوبها.. ثم كان أن جمعونا بعد أشهر في سجن الجنوب (سجن سواقة)، واختارني الإخوة للإمارة، فمكثت أميراً على كره مني قرابة السنة، رأيت أنها مشغلة لي، وآثرت التفرغ لطلب العلم والكتابة والتدريس، خصوصاً وأن نوعية تلك المجموعة من الشباب التي كانت تشاركنا الحبس والبلاء كانت من حديثي العهد بالدعوة وأحوج ما يكونوا إلى العلم والفهم والفقه.. فاتخذت قراراً ـ بعد أن أقنعت عموم الشباب ـ اخترت فيه بنفسي أن أترك الإمارة وأن أستخلف أبا مصعب عليها، وليس الأمر كما حاول بعض الكتّاب السخفاء إظهاره على أنه كان خصومة أو نزاعاً على الإمارة! وكأنها كانت إمارة دولة! فقد كانت إمارة سجن قاصرة محدودة لتصريف أمور الإخوة والتآليف بينهم وترتيب أحوالهم وتوحيد سياسة التعامل مع إدارة السجن.. ولم يكن يتجاوز عدد أفراد تلك الإمارة في أقصى حد بلغوه الثلاثين. وكانوا في غالب مدة سجننا لا يتعدون نصف هذا العدد.. وعندما وليته أمر الإمارة لم أتخل عنه بل وقفت إلى جنبه في وجه أعداء الله وتوليت أمر خطابة الجمعة والأعياد وتدريس الشباب، ولم أكن أبخل عليه بالمشورة والوقوف في صفه في وجه بعض المخالفين له أو الشاذين الطاعنين في إمرته، ولم آل جهداً في بذل المعونة والنصح له، فهذا كان ما اشترطه علي يوم قبل أن يخلفني في الإمارة..

ووقف هو إلى جنبي في الدعوة إلى الله صادعاً محتسباً متمسكاً لكل ما أكتب في نصرة التوحيد والبراءة من الشرك والتنديد، ولم يكن بيننا أي خلاف في الاعتقاد أو التأصيل الشرعي فقد كان يصدر عن ذات المشكاة التي أصدر عنها ويحب كتاباتي ويفرح بها وينصرها ويدعو من يعرف من الشباب في السجن وخارجه إلى نسخها وقراءتها ونشرها وتوزيعها..

مضت فترة المحاكمات بفضل الله طيبة نجحنا في توظيفها بتوفيق الله في إظهار دعوتنا وإعلان تكفيرنا للنظام وبراءتنا من قوانينه، فكنا نعلن ذلك صراحة في قفص المحكمة أمام الصحافيين وغيرهم من الحضور من خلال خطب نصدع بها وكلمات نعلنها، وأعددت لائحة اتهام خاطبت بها رئيس المحكمة وطواغيته ودولته؛ سلمتها له يوم أن سألني:

أمذنب أم لا؟

فأجبته أنا وإخواني بقولنا: أنتم المذنبون؛ عطلتم شرع الله وحكمتم بغير ما أنزل الله ووالتيم اليهود وحاربتم المجاهدين والموحدين.. وبينت له في لائحة اتهامه هو ونظامه التي سميتها (محاكمة محكمة أمن الدولة وقضاتها إلى شرع الله) بينت له بعض الأدلة على كفره وكفر نظامه وصرحت ببراءتي أنا وإخواني من محاكمهم وقوانينهم وطواغيتهم ودولتهم.. وكان أبو مصعب وسائر إخواننا المتهمين بالقضية حاضرين مشاركين في ذلك كله، تقر أعينهم به وترتفع معنوياتهم له، ويستشعرون بركات هذا البلاء على دعوتنا وتسعدهم الثمرات التي كنا نقطفها كل يوم في حبسنا الذي أراد أعداء الله من خلاله كتم هذه الدعوة وإخراسها، فانقلب السحر على الساحر، وصار السجن والمحاكمات بفضل الله وتوفيقه منبراً وأداة لنشر الدعوة وإعلانها وإظهارها، وانقلبت المحنة إلى منحة..

«وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين»

كانت أياماً مباركة اشتغلنا فيها بطلب العلم والدعوة إلى الله في السجن بين العساكر والضباط والمسؤولين الذين كانوا يزورون السجن في بعض الأحيان، ومع سائر النزلاء والمسجونين الذين كانوا يتداولون ما أكتب وينسخونه، ويصلون معنا ويحضرون خطب الجمعة والأعياد التي كنت غالباً ما أتولاها، ويسر الله لي فكتبت خلال فترة سجني الكثير من الكتابات والمؤلفات التي أثمرت بفضل الله تعالى هذا الخير المبثوث هنا وهناك، أسأل الله تعالى الإخلاص والقبول وحسن الختام..

وشعر النظام بخطر انتشار هذه الدعوة بين عموم السجناء وخطر نفوذها من وراء القضبان إلى خارج السجن وانتشار كتاباتي وطباعتها وأنا لا زلت أرسف في قيودي، فحاولوا عزلنا أولا عن سائر السجناء فضيقوا عليهم ومنعوهم من الصلاة معنا وعوقب كل من يتصل بنا أو حتى يسلم علينا، ثم عزلونا عنهم كلياً في مهاجع مخصصة لنا لا يدخلها علينا أحد، ثم قاموا بتنقيلنا بين سجون مختلفة مخصصة لنا، كان آخرها سجن الجفر الصحراوي الحدودي الذي حاولوا فيه عزلنا عن العالم كله، ولم يفلحوا في ذلك؛ فقد كانوا في كل مرة يقربوننا ويسهلون اتصالنا بطائفة من إخواننا؛ كما حصل حين نقلونا إلى سجن السلط فقد سهلّوا على إخواننا من شباب السلط زيارتنا بعد أن كانوا يتجشمون المسافة إلى سجن سواقة، فسهّل ذلك الانتقال اتصالنا بهم، وحين نقلونا إلى سجن الجفر قربونا إلى مدينة معان وسهلّوا علينا الاتصال بإخواننا هناك والتعرف بأناس جدد من أهالي معان.. وهكذا كلما سدوا باباً فتح الله لنا أبواباً.. هذا غير ما كان الله ييسره لنا في كل سجن جديد من وسائل إخراج الرسائل والمؤلفات وإدخال بعض الكتب والمراجع التي تتيسر لنا.. «ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» وهكذا حالنا معهم دوما هم يضيقون والله يوسع وهم لا يشعرون..

وكما هو جار بفضل الله معي إلى الساعة؛ فإنهم يودعونني السجن كل مدة سنة أو سنتين بغير جريرة إلا إظهاري لديني وتوحيدي ودعوتي التي من أهم أركانها إعلاني تكفير الطواغيت وبراءتي منهم ومن أسيادهم والتحريض على ذلك، وانحيازي ونصرتي للمجاهدين المقارعين لأسيادهم الأمريكان في كل مكان.. هذه هي جريمتي التي أسجن عليها بين الحين والحين..

يفعلون ذلك ظناً منهم أن السجن سيوهن هذه الدعوة أو سيطفئ وهجها، وما دروا ـ لغبائهم ـ أن السجن والبلاء لا يزيدها إلا توهجاً وانتشاراً، وقد جعله الله سبحانه محطات استفادة وإفادة لإخواني في السجن وخارجه، وفتح لنا فيه فتوحات لو يعلمها أعداء الله ما سجنونا للحظة، فالحمد لله على كرمه وإنعامه..

«يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون»

ثم فرج الله عنا بمنه وكرمه، فآثرت أنا البقاء في البلد لمتابعة ورعاية الدعوة التي بدأناها، وكلي أمل أن أنقلها غرباً عبر النهر فلي هناك آمال وطموحات.

ابو مصعب والسفر لافغانستان

وآثر أبو مصعب قطع ذلك والسفر إلى أفغانستان، ولم يكن ذلك ليعجبني خصوصاً مع تحفظاتي آنذاك على الأوضاع هناك، أما هو فقد كان متحمساً لذلك ويحث كل من يتعرف عليه، وإن يك ألمني العمل على تفريغ الساحة من الشباب الموحد، فلم يؤلمني صنيع أبي مصعب بقدر ما آلمني صنيع أبي عبد الرحمن ـ رائد خريسات ـ حين خرج هو الآخر مع طائفة أخرى من إخواننا من شباب السلط إلى أفغانستان فكردستان حيث قضى نحبه هناك هو وطائفة من إخواننا في قتالهم لتحالف الشمال الكردي وذلك بعد أن قطع شوطاً في الدعوة وإنشاء معسكرات تدريب وإعداد..

آلمني صنيع رائد رحمه الله لأنه كان رائداً أو رأساً في الدعوة إلى الله في بلده وشعلة متوقدة بين الشباب وشوكة وشجى في حلوق أهل البدع.

أما أخونا أبو مصعب فكان يقول لمن يعتب عليه الهجرة من البلد: انه رجل يحب الجهاد ولا صبر له على طلب العلم وتدريسه والدعوة إلى الله، فاستنفر هو الآخر طائفة من إخواننا معه إلى أفغانستان حيث استفادوا من ظروف البلد ومعسكراتها..

ولكنها كانت استفادة مكشوفة لمخابرات بلادنا لاختلالات تنظيمية قاتلة كانت تبلغني وأتألم لها وأحاول جاهداً مناصحتهم ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

الامتناع عن مساعدة طالبان

وبلغني أن أبا مصعب ومن معه من الشباب امتنعوا عن القتال مع الطالبان لما عاينوا أشياء كنت أتحفظ بسبب بعضها على الأوضاع هناك ولا أتحمس للسفر الذي تحمس له غيري، فعاينت تلك الأشياء بعين البصيرة في وقت مبكر دون أن أتجشم تلك المسافات التي قطعوها كي يعاينوها بعين البصر، مع أنها أشياء كانت معلومة تنتاقلها وكالات الأنباء والصحافة وسمعنا بعضها من خلال جهاز الراديو قبل أن يفرج عنا، ومع ذلك فقد كان الحماس والخروج من تحت ضغط أعداء الله هو المحفز الذي أعان على غض الطرف عن تلكم الأشياء أولاً، ولا أدري ما الذي ضخمها وجعلها موانع للقتال في صفهم فيما بعد، مع أن الأصول تقتضي غير ذلك....

وكانت تبلغني أخبار الإخوة تباعاً من اعتقال أو تقلب وانتقال أو رجوع إلى الأردن وغير ذلك مما كان يبلغني فأتحسر معه على تبعثر جهد إخواني وتفرقهم وتشتت طاقاتهم في الأقطار بين أفغانستان وكردستان ثم باكستان وإيران فالعراق.. واعتقال طائفة منهم في الباكستان وطائفة أخرى في إيران وطائفة ثالثة في كردستان والعراق.. وأتألم على ما آل حالهم إليه بسبب العمل من غير برنامج واضح، والتنطط من جهة إلى جهة بحسب الظروف وتقلبها لا بحسب استراتيجية واضحة وخطة مسبقة..

وكنت أتابع تلقف المخابرات في الأردن للعائدين منهم كمصادر غزيرة للمعلومات كانت تغنيهم حقيقة عن تكلف بث العيون والجواسيس هنا وهناك..

كانوا يتابعون من خلالها التفاصيل الدقيقة لأخبار الشباب بصورة مفصلة في أفغانستان وكردستان وتفاصيل نشاطاتهم ومعسكراتهم ومساكنهم وعناوين إقامتهم وكناهم الجديدة، ولقد كنت أصدم بهذه المعلومات المفصلة وأتألم لها عندما كنت أواجه بها من المخابرات حين كنت أحاول التمويه على إخواني قدر الإمكان فكنت أعرف من تحقيقاتهم معلومات مفصلة عن الشباب أسمعها لأول مرة، فإذا تثبّتُ منها بعد الإفراج عني وجدتها كما قيلت لي، وليس ذلك قطعاً من فطنة أعداء الله ولا من ذكائهم، وخسئوا من أن يعلموا الغيب، ولكنه من تهلهل أوضاع الشباب التنظيمية وتفريطهم الأمني القاتل.

وناصحت بعضهم في أشياء من ذلك، وراسلتهم، وكلفني ذلك من أذى أعداء الله وغيرهم ما أحتسبه عند الله، وتحملته شفقة وحرصاً على إخواني وجهودهم وطاقاتهم أن يتسلط عليها أعداء الله ويحبطوها، وكنت أتألم من السطحية العجيبة في تعاملهم مع المسائل التنظيمية والعسكرية وضحالة التجارب وتخبطها والتي تسببت بإحباط عدة محاولات لأبي مصعب من العمل التنظيمي الذي سعى في إقامته في الأردن، وما ترتب على تلك المحاولات (غير الناجحة) من جرجرة مجموعات من الشباب إلى السجون في ثلاث محاولات حتى الآن بلغت أحكام بعضهم إلى الإعدام على (لا شيء) عملوه، هذا غير ما غنمه أعداء الله في التجربتين الأخيرتين من أموال طائلة؛ المسلمون ودعوتهم وجهادهم في أمس الحاجة إليها.. كنت أتابع هذا وأناصح أهله أحياناً ولكن..

بذلت لهم نصحي بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

وكنت أتألم لذلك وأتوجع لانتقال الاختلالات التنظيمية والتهلهل الأمني من أفغانستان إلى التجارب المحلية عندنا من خلال اختيارات لأبي مصعب لم تكن موفقة؛ وذلك باختيار أشخاص يفتقرون إلى أدنى شروط العمل التنظيمي وخبراته، ورغم وفرة الإمكانات المالية التي كنا نتألم ونصدم بمصادرة أعداء الله لها بعد إحباط كل عمل؛ فلم يستثمرها المعنيون في عمل مفيد للأمة والجهاد بل ولا حتى في الأخذ بالاحتياطات الأمنية التي تتناسب مع الطموحات والآمال، وهذه أمور لا أتكلم عنها رجماً بالغيب؛ فقد عاينتها بنفسي عند إحباط تلك التجارب والأعمال القصيرة وعاينت أحوال أهلها وتفاصيل تخليطهم حين سجنت معهم وكنت قد ناصحتهم بأشياء من قبل كنت غير مطلع على تفاصيلها ولكني كنت أتفرسها وأتوسمها فتقع بعد ذلك كما كنت أتوقع وأتخوف..

وغالبا ما كنت أجر معهم إلى السجن بسبب تلك المناصحة أو بسبب حيازة أولئك الشباب لكتاباتي أو معرفة بعضهم بي واعترافهم بذلك دون أن يربطني بهم رابط تنظيمي ودون أن يطلعوني على شيء من ذلك، ولكنني كنت أرى وأتفرس نتائجها بمقدماتها من خلال خبرتي وتجاربي في مجال العمل الدعوي والتنظيمي والتي لم يستفيدوا منها حين ناصحت بعضهم، نعم استفادوا من كتاباتي وأيضاً من اسمي واستظلوا «بمشيختي» وأشياء أخرى يحزن ذكر تفاصيلها ويؤلم المؤمنين ويقر أعين أعداء الدين، ما كنت لأنزعج منها أو أتألم لها لو كان عملهم سديداً كيسا متقناً.. أعرض عن ذكرها هاهنا..

سقوط افغانستان

بعد سقوط أفغانستان تبعثر الإخوة بين باكستان وإيران واعتقلت طائفة منهم في الباكستان وأخرى في إيران بينما قتل بعضهم في أفغانستان على أيدي تحالف الشمال العميل، وتوجه أبو مصعب إلى كردستان التي لم تكن يوماً في برنامجه ولم يتوافق مع الشيخ رائد خريسات رحمه الله عليه وكان أبو عبد الرحمن قد استقر به المقام بها مدة وأنشأ معسكرات وأعد وربى هناك رجالا وترك أثراً ظاهراً للعيان ثم قتل هو ومجموعة من إخواننا هناك رحمهم الله وأسكنهم الفردوس الأعلى في مواجهات مع تحالف الشمال الكردي العميل..

فالتفت طائفة ممن تبقى من هؤلاء الرجال حول أبي مصعب وكان بعضهم قد اكتسب خبرات طيبة في فنون عسكرية كثيرة خصوصاً في مجال المتفجرات.. فكان هؤلاء الشباب عونا وسنداً لأبي مصعب في العراق بعد أن تبعثر أكثر الشباب الذين كانوا معه في أفغانستان ما بين قتيل ومعتقل وطريد بين باكستان وإيران والأردن..

ثم ما لبث أن لحق به آخرون من الأردن وغيرها، والتحق به أبو أنس الشامي ففرحت بذلك لمعرفتي بحاجة أبي مصعب الماسة إلى طالب علم يقف إلى جنبه، وحاجته إلى التذكير والمناصحة مع المناصرة والتأييد على بصيرة وسط هذه الأحوال المعقدة في العراق ووسط الحرب المعلنة عليه وعلى كل مجاهد، وذلك من الأسباب التي دعتني إلى المبادرة بكتابة هذه الكلمات..

ولكني رجل بفضل الله قد نجذتني التجارب وعلمتني الأيام والابتلاءات فلا أهجم متحمساً ولا أتكعكع متلكئاً، وأحافظ على توازني ما استطعت إلى ذلك سبيلا.. الشيء الذي يجعلني أضمّن هذه الكلمات إضافة إلى صريح وقوفي إلى جنب أخي أبي مصعب ضد كل من عاداه وناوأه من الطواغيت وأسيادهم وعلماء السوء وأذنابهم؛ أضمنها إضافة إلى ذلك مناصحة وتذكيراً لا بد منها له ولغيره من المجاهدين.. فإن أخذ بها فإن ذلك يسعدني ويقر عيني وينعش آمالي.. وإن رفضها وردها فذلك وإن كان يحزنني ويؤلمني إلا أنه واجبي له وللأخوة المجاهدين أكون قد أديته..

وأبدأ ذلك بتأكيد ما ذكرته
في هذه الشجون والذكريات..

فأبو مصعب الزرقاوي على ما نعتقده من عقيدة أهل السنة والجماعة، وما ننتهجه في دعوتنا إلى التوحيد من إظهار وإعلان ملة إبراهيم والبراءة من الطواغيت وأنصارهم وتكفيرهم..

وهو يفرّق كما نفرق بين من نكفرهم من أنصارهم الذين يتولونهم على شركهم أو يظاهرونهم على الموحدين، وبين غيرهم ممن قد يعينونهم على منكر أو يداهنونهم على باطل لا يصل إلى حد الكفر فلا يكفر أمثال هؤلاء كما لا نكفرهم، فضلا عن سائر الناس المنتسبين للإسلام؛ فإن عقيدته وعقيدتنا فيهم هي عقيدة أهل السنة والجماعة لا نكفر مسلماً بذنب غير مكفر ما لم يستحله، وهو يحرص دوما إن شاء الله على التزام ذلك هو ومن معه من الشباب.

ومن ثم فأبو مصعب يعتقد ما نعتقده تجاه عوام المنتسبين للإسلام في سائر بلاد المسلمين من العصمة لدمائهم وأعراضهم وأموالهم، ولا أتخيل بحال أن يتقصد أو يتعمد أن يلحق الأذى بنفس مسلم أو ماله أو عرضه؛ بل أعرف أنه على الاستعداد لأن يبذل روحه ودمه وماله ومهجته في سبيل نصرة إخوانه المسلمين وإخراجهم من ظلم وظلمات الطواغيت إلى نور وعدل الإسلام.. والأمر ليس كما حاول أعداء الله تصويره كذبا وزوراً في إعلامهم من أنه استهدف آلاف المدنيين في بلده بسلاح كيماوي.. فذلك كله محض كذب وزور مكشوف لا ينفق ولا يروج على أحد، دفعهم إليه حقدهم الأسود على كل مجاهد غيور على دينه وأمته، كما دفعهم إليه إخلاصهم لأوليائهم الأمريكان الذين يتغيظون من كل مجاهد يشمخ بهامته أمام جبروتهم ويأبى الانبطاح لسياساتهم والانسحاق تحت أحذيتهم كما يفعل أذنابهم..

وحتى من الناحية الفقهية العملية فأنا أعلم أن الرجل ـ وإن لم يكن ذلك الطالب المتقدم في العلم ـ إلا أنه قد أتم حفظ كتاب الله في السجن و يتحرى الحق وهو ضالته يبحث عنه ويتبناه حيث وجده لينصره بالغالي والنفيس، ولذلك كان دوما يوم كنا في السجن لثقته في عقيدتي وكتاباتي واختياراتي لا يصدر في غالب أمره إلا عن مشورتي واستفتائي حباً لهذه الدعوة وولاء للتوحيد وملة إبراهيم التي ننصرها وندعو إليها..

ولذلك ولغيره لم أفاجأ كثيراً حين بلغني أنه سمى جماعته المقاتلة في العراق ـ دون أدنى تنسيق معي أو مراجعة لي ـ (بجماعة التوحيد والجهاد) وذلك مضاهاةً والتصاقاً بموقعي على الإنترنت المسمى بمنبر التوحيد والجهاد منذ سنين.. فأسأل الله تعالى أن يحمل المسمى بصورته المشرقة كما حمل الاسم..

لقد فرحت وانتعشت آمالي بقدر حين علمت بتقريبه لأبي أنس رغم أن الرجل لم يكن يتبنى اختياراتنا بحذافيرها وهي مرونة من أبي مصعب أفرحتني بعد أن كان افتقاره إليها من قبل قد حرمه الاندماج في القاعدة والنزول تحت إمرة الشيخ أسامة حفظه الله تعالى.. فأرجو أن يكون ذلك منه تصحيحاً لهذا الأمر ووسطية لا حاجة واضطراراً، فإن من المقرر عند أهل السنة والجماعة جواز القتال والتعاون مع الأمراء الفجار فكيف بما هو دون ذلك مما يسع فيه الاختلاف والاجتهاد..

وأعطف على هذا بشيء يقابله وهو أن لا يكون ميزان التقريب والإقصاء على قدر وكمية الولاء والتعلق به أو الموالفة والموافقة وعدم المخالفة والمراجعة.. فهذا ميزان متأرجح مضطرب غير متزن وكم قرب هذا الميزان أناساً جهالا لا يصلحون لكثير من الأعمال والمهمات التي أوكلت إليهم، وغض الطرف عن شذوذاتهم وانحرافاتهم التي عاينا وصدمنا بها مراراً.. وأقصى في الوقت نفسه أخياراً أكياساً يعدل الواحد منهم العشيرة والقبيلة فوا أسفاه على عدم الاستفادة منهم .ان سذاجة ومحدودية تجربة قيادة مجموعة صغيرة في السجن لا يجوز أن تنتقل بسطحيتها وسذاجتها إلى العمل التنظيمي المسلح، فقد عاينا الثمن الباهظ لذلك في فقد إخوة أعزة سواء بالقتل أو التأبيد في السجن، هذا غير الخسائر المادية الطائلة التي أهدرت في تلك التجارب المتعجلة..

فصدق النية وحب الدين والورع والإخلاص والعاطفة والحماس كل ذلك لا يكفي وحده لإثراء التجربة والارتقاء بالعمل التنظيمي، ولا يغني بحال عن الاستعانة بذوي الخبرة والفطنة والتجربة والمعرفة، فحذار من الاغترار أو الاكتفاء بالتجربة الهزيلة أو القصيرة، والزهد بخبراتهم لمجرد أن لا يكونوا من أهل الموالفة والموافقة على كل شيء. كما أنني أعرف من أبي مصعب أنه لا يتنازل عن شيء من عقيدته أو توحيده الذي يدين الله به، ولا يفرّط في شيء منه ولا تأخذه فيه لومة لائم ولا يتضرر في هذا الأمر بضغط أو مخالفة أحد؛ فأرجو أيضاً وأسأل الله تعالى أن لا يتضرر أيضا في اختياراته الجهادية والقتالية، بسبب ضغط الأعداء وبسبب بطشهم وإجرامهم.. فيبقى على الجادة في أعماله واختياراته لا يضره من خالفه ولا من خذله فلا يميل إلى إفراط أو تفريط..

فما دام لا يكفّر الناس بالعموم ولا يكفرهم بالمعاصي ولله الحمد، ويعلم أن جمهور الناس في هذه البلاد التي نعيش فيها ينتسبون إلى الإسلام، فيجب عليه مراعاة ذلك في اختياراته القتالية، ويجب عليه التشدد في التحرز من سفك دماء المسلمين ولو كانوا فجاراً أو عصاة وأن يتنبه إلى الفوارق الظاهرة بين القتال في دار الكفر الأصلية التي جمهور أهلها كفار، والقتال في دار الكفر الاصطلاحية الحادثة التي جمهور أهلها من المنتسبين للإسلام ومراعاة تلك الفوارق.. وحذار من التساهل فيما اعتدنا على التشديد فيه من عصمة دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ولو كانوا عصاة أو فجاراً فإن دماء المعصومين ورطة من الورطات يوم القيامة.. وقد درسنا ودرّسنا في أبواب الاعتقاد أن استباحة دماء المسلمين خطر عظيم والخطأ في ترك ألف كافر، أهون من الخطأ في سفك قطرات من دم مسلم واحد..

فيجب التنبه لهذا وحذار من إغفاله طرفة عين..

(غدا تتمة للشهادة)

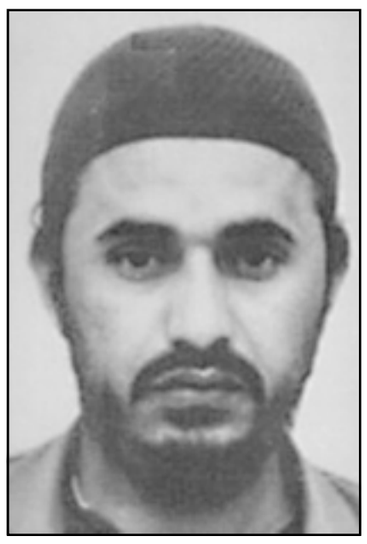

ابو مصعب الزرقاوي

* كاتب وصحافي من الاردن